نتائج هجرة الحضارمة إلى الهند

(الوجود العربي في حيدر أباد)

[إعداد الأستاذ: عمر الخالدي]

ترجمة وتلخيص: عبد السلام عبد المنعم

قبل عام ١٩٦٨ م، كان اصطلاح حضرموت يطلق بصفة أساسية على دويلات جنوب الجزيرة العربية لسلاطنة القيطي والكاثري. وقد انطبق هذا الاصطلاح على المنطقتين الرابعة والخامسة لدولة جنوب اليمن الجديدة منذ عام ١٩٦٨ م.

يطلق على شعب حضرموت اسم الحضارمة وكثيراً ما وصفوا بكونهم من أكثر شعوب جنوب الجزيرة العربية، خارج عدن، ثقافة وتعليماً وذلك لعدة أسباب:

أولاً: أن مادة الثقافة عند الحضارمة كانت أكثر تطوراً من تلك الموجودة لدى أيّ من شعوب جنوب الجزيرة العربية. في المنطقة الساحلية والوادي مدن كثيرة آهلة بالسكان، تتميّز بمبانيها المعروفة بناطحات السحاب، والتي تحدث عنها الرحالة الغربيون.

ثانياً: أن لحضرموت تاريخاً طويلاً على اعتبار أنها مركز هام لتعليم الدين الإسلامي. فإن طريم بمركزها التعليمي تعتبر من أعظم مدن الجزيرة العربية قاطبة، كما أن الحياة الفكرية والدينية قد تطورت بصورة تقليدية في عدد من مدن حضرموت.

لقد كان هناك دائماً عدد لا يستهان به من الأسياد (من أنساب النبي محمد ﷺ) بالإضافة إلى رجال الدين والعلم الذين امتد تأثيرهم واتسعت شهرتهم عبر البحار.

ثالثا: أن لحضرموت تاريخاً طويلاً في الهجرة إلى عدد من الدول العربية والآسيوية في شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا، مثل أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وفي كل هذه البلاد نجد أن المهاجرين من الحضارمة قد تخصصوا في التجارة وفي النواحي الدينية وتعليم الإسلام.

وإلى جانب هذه البلاد، هاجر الكثير من الحضارمة إلى الهند. على أن الذي يخصنا في هذا البحث، هجرة الحضارمة إلى ساحل الهند الغربي في العصور الوسطى، بصفة عامة، وكذلك إلى حيدر أباد وولايات ماراثا Maratha في العصر الحديث بصفة خاصة.

لقد كان المهاجرون الحضارمة في العصور الوسطى أسياداً استوطنوا في المراكز التجارية والثقافية والسياسية، مثل بيجابور Bijapur وسودارت **Sodart** حيث لايزال أحفادهم يعيشون. وكذلك في أحمد أباد وبروش وحيدر أباد وجوجارات ودلهي وبارودا وكليكتا وملبار وبنغال.

كان من بين هؤلاء الأسياد اللامعين، أبو بكر محيي الدين عبد القادر العيدروسي (١٥٧٠ ـ ١٦٢٧) الذي عاش وقضى نحبه في أحمد أباد، كان صوفياً معروفاً وعالماً بارزاً، كتب نحواً من أربعة وعشرين كتاباً من الكتب المتعلقة بالتاريخ وتفسير القرآن والشريعة.

لقد حظي الأسياد والعلماء من الحضارمة بمركز مرموق في بيجابور في عهد عادل شاهي (١٤٩٠ ـ ١٦٨٦م). كما كانت المنطقة الساحلية الجنوبية الغربية في ملبار مركزاً آخر من مركز هجرة الحضارمة، حيث عرفت ملبار بموقعها الاستراتيجي على طرق التجارة في العالم القديم.

كان للحضارمة شأن عظيم في تجارتهم الممتدة عبر المحيط الهندي والتي سبقوا فيها أية أمة أخرى بأمد بعيد.

ومن العوامل التي ساعدت الحضارمة في بلوغ ما وصلوا إليه من رفعة في بلاد الهند، هي حالة الهندوس المحلية، الذين كانوا يعتبرون العرب تجاراً أمناء شرفاء، وهذا، فقد رحبوا بالتجارة ومواصلة التعامل معهم في شتىّ المجالات. وهكذا «كان بعض العرب يبحرون ما بين شبه جزيرة العرب «وكيرالا» في عهد النبي محمد ﷺ ... واستمرت عملية الانصهار، ورغم أن بعضهم قد يكون قد نزح من بلاد الحجاز، وعمان والبحرين إلا أنهم كانوا بصفة أساسية تجاراً من اليمن وحضرموت.

يرى البعض أن أسلاف مسلمي مابيلا Mapilla Muslims كانوا من أوائل المسلمين في الهند. قبل غزو محمد بن قاسم للسند في عام ٧١١م ـ ٧١٠م) بكثير، ونرى أن السيد سليمان ندوى يساند هذا الرأي فيقول:

«لقد دخل الإسلام بلاد الهند في خلال بضع سنين من إعلان النبي محمد ﷺ رسالته. «في مالبار» نجد أعداداً لا بأس بها من أسر مابيلا أصلهم من مدينة حضرموت الداخلية في طارى....»[*].

فبينما كانت هجرة الحضارمة إلى سواحل مالبار، وكونكان وجوجارات في العصور الوسطى مقصورة إلى حد ما على التجار البحريين والصوفيين والوعاظ المسلمين. فإن وصولهم إلى داكان وحيدر أباد في نهاية القرن السادس حتى منتصف القرن التاسع عشر. كانت من أجل العمل في الجيش مع الحكام المسلمين من المناطق الغربية والوسطى والجنوبية من الهند. كان هؤلاء الحكام المسلمون هم نتاج الفوضى التي نبعت انحلال الإمبراطورية المغولية بعد موت الإمبراطور أورانجيب الامجير في عام ١٧٠٧م. وفي كل هذه الولايات كان العرب الحضارمة يعملون كجنود، بالإضافة إلى عملهم كحراس على خزائن الدولة وحماة للمعابد وأماكن العبادة الأخرى. وقد أقر المسئولون البريطانيون مهاراتهم العسكرية الفائقة. وورد ذلك على لسان ضابط بريطاني حارب معارك ضدهم:

«قد لا توجد قوات في العالم أكثر ثباتاً في مواقعها من العرب. فمع أنهم على غير دراية بالتطور العسكري. إلا أن كل واحد منهم لديه عزته وعزيمته الخاصة، والتي لا تغيب عنه

(*) اشتياق حسين قرشي المجتمع الإسلامي في شبه قارة الهند وباكستان ١٩٦٢ ص ١١.

أبداً، طالما حملته قدماه. إن الشجاعة سجية يتحلون بها كما تغلب عليهم صفة السكينة ونفاذ البصيرة، فغالباً ما نجدهم متسلحين ببندقية ذات فتيل وسيفين وثلاثة أو أربعة خناجر ودرع في جنبيته.

ويمكننا القول بصفة عامة: إن عدد القوات التي كانت تخدم في جيش البيشاو وبيرار بلغت نحو ٦٠٠٠ رجل ـ كقوة مفككة وغير منظمة ـ بيد أن كل واحد منهم كان مثلاً رائعاً للقوة والصلابة. وعلى أكتاف هؤلاء العرب استطاع الأمراء أن يلقوا بتبعيتهم في الوقت الذي تخلت عنهم فيه قواتهم وراحت تلوذ بالفرار.

ومن خلال عملية تقدير نسب رواتب الجنود في جيش «مارثا» يتضح لنا كيف كان يقيم هم أسياد مارثا وزنا عظيما:

«كان الجندي العربي يتقاضى شهرياً مبلغ ١٨ روبية، أما الجندي المسيحي أو البرتغالي فكان يدفع له مبلغ ١٥ روبية، والهندوستاني ٨ روبية، أما جندي مارثا وديكاني فكان يدفع لكل منهما ٦ روبية».

انهزم جيش البيشاو Peshaw ، الذي بدأ الحرب، واستسلمت قواته للإنجليز في عام ١٨١٨م. كما ألغى مكتب البيشاو في العام التالي وسرح جيشه. وبينما اختار العرب التابعون لجيش البيشاو الذهاب إلى حيدر أباد، إلا أنهم أعيدوا إلى حضرموت عن طريق بريطانيا بعد دفع مستحقاتهم المتأخرة.

وبالتالي فإنهم أرسلوا إلى حيدر أباد تحت حماية هاميلتون ويزالا في يناير من عام ١٨١٨م. كان من بين هؤلاء العرب البارزين عمر بن عوض الذي ترقى حتى وصل إلى رتبة جمادا الجيوش العربية هذا، بالإضافة إلى الثروة الكبيرة التي استطاع جمعها.

قبل أن نناقش موقف العرب الموجودين في حيدر أباد بإسهاب وتفصيل. علينا أن نتفقد الحالة الاجتماعية ـ السياسية التي كانت عليها ولاية حيدر أباد. فكما أشرنا آنفاً، استطاع عساف جاه أن يحقق استقلال الإمبراطورية المغولية في دلهي في عام ١٧٤٢م وتأسيس ولاية حيدر آباد.

كان عساف جاه نظام الأول قائداً كفئاً وحاكماً فذاً، اتسمت شخصيته في الحكم

بالحنكة والمهارة مستفيداً في ذلك من كونه عسكرياً بارعاً ودبلوماسياً قديراً.

وبعد وفاته في عام ١٧٤٨ م، بدأت تنشب الصراعات حول السلطة بين أبنائه وابن عمه ثم أخذت الأمور تتعقد بتدخل المارثا والانجليز والفرنسيين.

بعد عدة سنوات من ثقل التحالف العسكري والسياسي، كسبت حيدر آباد استقرارها الداخلي، وذلك إبان فترة حكم نظام علي خان (١٧٦٢ ـ ١٨٠٣م) الذي عقد عدة اتفاقات من الفترة ما بين (١٧٦٥ ـ ١٨٠٠م) مع الحكومة البريطانية في كليكاتا والتي خضعت حيدر آباد بموجب إحداهما للنفوذ البريطاني. ورغم أن هذه الاتفاقية قد أمنت حدود حيدر آباد الخارجية، إلا أنها زادت من التدخل البريطاني في إدارة حكم الولاية.

اتسمت حالة عدم الاستقرار في الولاية بالتغيير المتكرر في الوزراء، ممن يخضعون بصفة دائمة للمقيم البريطاني، الذي أتى من أجل أن يكون له صوت محسوس في إدارة حكم الولاية.

وهكذا فإن فترة النصف قرن فيما بين موت نظام علي خان في عام ١٨٠٣م وتولى سالار جانج السلطة في عام ١٨٥٣م قد وصفت بافتقادها لروح الاستقرار السياسي، إلى جانب المعضلات المالية الحادة. كانت هذه هي الأسباب الحقيقية التي جعلت حيدر آباد محطاً لأنظار المغامرين العرب في عملية قيامهم بالهجرة إليها.

سبقت لنا الإشارة إلى وصول عدد غفير من العرب في بونسلانس في ناجبور Nagpur ، وهكذا فقد أصبح رؤساء العرب أكثر ثراءً وأقوى نفوذاً، وألمحنا كذلك كيف أصبح عمر القيطي واحداً من أثرى الأثرياء. وورث ابنه صالح مركزه من بعده في عام ١٨٦٥م. وبلغت قوة صالح من المشاة نحو ١٥٠٠ جندي في حين كانت تقدر ثروته من ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٥٠٠.٠٠٠ جنيه إسترلينياً وذلك في ستينات القرن التاسع عشر. وبقي صالح في حيدر آباد بينما استولى عوض بن عمر وعبدالله بن عمر على الشهر Shihr في عام ١٨٦٧م وعلى موكالا في عام ١٨٨١م وكونا بذلك سلطنتي شهر وموكالا.

إلى جانب ذلك، فقد كانت هناك مجموعة من العرب الذين استطاعوا تكوين ثروة هائلة من أمثال غالب بن محسن الكثيري الذي أتى مباشرة من حضرموت إلى حيدر أباد، بخلاف غيره، واستطاع أن يكون ثروة هائلة. فقد لعب غالب بن محسن الكثيري دوراً ناجحاً في جيش حيدر أباد، واستطاع من خلاله أن يتحدى منافسه القيطي وهو من بني وطنه. ولما احتدم أوار المنافسة والتحدي بينهما، لم يجد نظام ناصر الدولة سبيلاً لإنهاء هذا التنافس والتناحر إلا بأمر غالب بن محسن بترك حيدر أباد خشية إحداث الاضطرابات والقلاقل بين الطوائف المتنافسة.

وعلى أية حال، فقد استطاع الكثيري من جمع ثروة طائلة، بلغت من الكفاية ما جعله يقوم بتأسيس سلطنة كثيرية جديدة في عام ١٨٤٨م داخل حضرموت بعاصمتها سايون.

كانت الشخصية البارزة الثالثة هي شخصية عبدالله بن علي العلقي الذي عاصر عمر ابن عوض القيطي وغالب بن محسن الكثيري. ورغم أنه لم يدرك نفس الدرجة من النجاح التي حققها معاصروه، إلا أنه حظي بمكانته المرموقة في حيدر آباد، وبلغ كذلك درجة من الثراء مكنته من الدخول في مشاريع البناء في وطنه الأم. وذلك في أربعينات القرن التاسع عشر الميلادي.

لم يكن الوجود العربي المتزايد خفياً عن أعين البريطانيين في حيدر آباد، الأمر الذي جعل جيمس س. فرازر ومن تلاه من المقيمين البريطانيين يلح بشدة على النظام والحاكم العام بطرد العرب، وبخاصة منسوبي الجيش منهم. ولكن رد نظام ناصر الدولة كان دائماً يأتي بالرفض، فذات مرة أخبر المقيم لو Low بأن هناك شيئين لا ينبغي على الحاكم فعلهما: تسريح الجيش، والتخلي عن منطقته.

وهكذا كان للعرب ثقلهم ووزنهم في حيدر آباد. وجاء ذلك في تقرير على لسان رئيس مجلس الهند البريطاني يصفهم فيه بأنهم «أصبحوا بمثابة شوكة في جانبنا في الهند».

لم يكن هذا الادعاء مبالغاً فيه فحسب، ولكنه كان زائفاً في مجمله، ذلك لأنه عندما تقدم بعض الجنود الهنود طالبين مساعدة العرب والوقوف إلى جانبهم ضد الانجليز في عام ١٨٥٧م، نجد أن رد الرؤساء العرب كان دائماً يأتي برفض عروضهم، متعللين في

ذلك بأنهم إنما جاءوا إلى الهند من أجل المال وليس من أجل القتال.

لم يدخل العرب في صراع مع السلطة البريطانية في الهند، بل كان يستخدمهم سالار جانج الأول في ردع القوات المناهضة للمصالح البريطانية في المنطقة، ثم ما لبث النفوذ العربي في حيدر أباد بعد ذلك أن أخذ في الضعف والتردي، وهذا منذ استيلاء سالار جانج على السلطة في عام ١٨٥٣م وبعدها بدأت تنظر قضايا العرب أمام المحاكم العادية، بخلاف ما كان متبعاً من قبل. كما بدأت حكومة بومباي بإصدار نظام جديد خاص بالجوازات والجنسية، يقضي بمنع هجرة العرب إلى البلاد والحد من وجودهم.

ورغم أن قوة العرب كانت آخذة في الانهيار منذ بداية حكم سالار جانج الأول، إلا أن محاولة بقائهم كانت مستمرة إلى أن عاودت تحسنها مع مطلع القرن العشرين، حيث حظوا على الرتب العالية في الجيش والشرطة. كما تولوا وظائف مرموقة في الخدمات المدنية، وأصبحوا الآن يشكلون جزءاً من المجتمع الإسلامي في أنحاء عديدة من حيدر أباد وأورانجباد وجولبار.

وهنا نخلص إلى القول بأن هجرة الحضارمة إلى الهند كان لها تأثيرها الملموس في مختلف أوجه الحياة في الهند، ولم تكن جالية حضرموت هي الجالية الوحيدة التي هاجرت إلى الهند واستقرت فيها، ولكن كانت هناك جاليات أخرى من اليمن الشمالي، وعمان، والبحرين وعسير في المملكة العربية السعودية.

• يعلم الله أن كل جارحة من جوارح الشعب تؤلمني، وكل شعرة منه تمسها أذى تؤذيني.

وكذلك الشعب، فإنه يتألم إذا أصابني أي شيء، ولكن المصلحة العامة تضطرني بأن أقضي على من لا يصغي للنصح والإرشاد، وأن أتجرع ألم ذلك حفظاً لسلامة المجموع.

«عبد العزيز آل سعود»